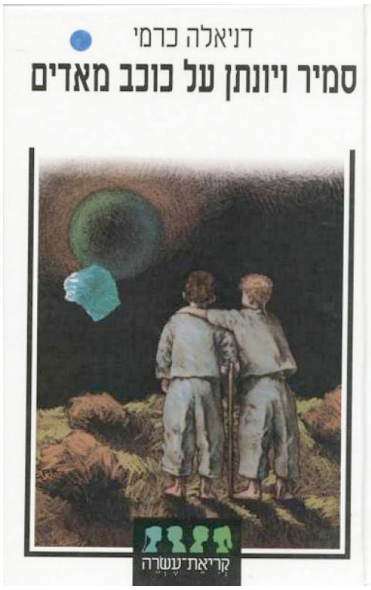

أمين دراوشة *

إعادة تأهيل الفلسطيني تحت «احتلال متنور» في رواية «سمير و يوناتان على كوكب المرّيخ»!

تتمثل واحدة من المشاكل الكبرى التي تواجه المشروع الإسرائيلي بالسكان العرب الفلسطينيين الذين رفضوا مغادرة أرضهم. ظهر هذا الأمر جليًا في الأعمال الأدبية الإسرائيلية، إذ لا يخلو عمل أدبي من وجود شخصية عربية، حتى لو كانت على شكل ظلال. ويقول الناقد إيهود بن- عيزر في مقالة له بعنوان «مقتحمون ومحاصرون» إن «العرب واليهود، كلّ منهما يصوغ الآخر ويجسده بشكل سلبي. والمشكلة العربية أصبحت مشكلة يهودية بالنسبة لنا».[1]

وقد ساهم كل من الكاتبين بنيامين يهوشواع وعاموس عوز في صياغة العلاقات بين الشعبين الفلسطيني والإسرائيلي خلال فترة الستينيات والسبعينيات. وتحمل مؤلفات يهوشواع رسائل عديدة ومتنوعة، وهو يصف الصراع بين الشعبين وصفًا كابوسيًا كيانيًا: فالعربيّ هو مشكلة اليهودي، بل هو الكابوس الوجوديّ الذي يقلق راحته، ويسلبه الأمان.

في قصته «في مواجهة الغابات» (١٩٧٠)، يمثل العربي الفلسطيني كابوسًا مرعبًا، يسيطر على بطل يهوشواع، ويجعل حياته صعبة، ويشاركه في حرق الغابة، لتظهر تحتها قرية العربي المدمرة، وهو في ذلك الوقت لا يستطيع أن يحاور العربي فيجعله مقطوع اللسان. أما في رواية «العاشق»،[2] فتشكل العلاقات العربية - اليهودية، منبعًا مهمًا لرؤية يهوشواع الروائية لأن شخصية الفتى نعيم،

* ناقد وباحث فلسطيني- رام الله

لهـا وجودهـا وسـيطرتها عـلى حياتهـا، ولهـا وزنهـا في عالـم الكاتـب الروائـي، وقـد ظهـرت كشـخصية متوافقـة مـع نفسـها أكثـر مـن الشـخصيات اليهودية الأخـرى في الروايـة، رغـم الملاحظـات الكثـيرة عـلى صياغـة الشـخصية العربيـة فيهـا؛ فنعيـم مجـرّد فتـى فلسـطيني، وهـو شـخصية هامشـية في المجتمـع الفلسـطيني. ومـع ذلـك، عـرض الفلسـطيني كأداة ووسـيلة في النفـس الإسرائيليـة اللاهثـة وراء البحـث عـن هويتهـا الممزّقـة بـين مجموعـات بشريـة، قدمـت مـن مختلـف دول العالـم لتقيـم في فلسـطين كيانًـا لهـا.

بالنسـبة للشـخصية العربيـة ـ الفلسـطينية ـ والكيفيـة التـي يتعامـل بهـا الإسرائيـلي معهـا، فإنهـا وثيقـة الصلـة بتوصيـف الإسرائيـلي لذاتـه، بـل وتتداخـل فيهـا أيضـا صـورة العربـي الفلسـطينيّ لذاتـه: إنّ نعيـم، ابـن الخامسـة عـشرة، يقـوم عـلى خدمـة العجـوز فيدوتشـا التـي تذيقـه الويـل بتعليقاتهـا القاسـية، في حـين تنتابهـا الحـيرة مـن كـون هـؤلاء العـرب لا يهربـون، ولا يغـادرون. إنّ وجـود العربـيّ عـلى أرضـه يشـكل كابوسًـا لا فـكاك منـه في حيـاة اليهـودي.

والأمـر نفسـه لـدى بطـل الروايـة آدم، فعـلى الرغـم مـن أنـه يشـعر بـأن الفتـى نعيـم يشـبه ولـده الميـت، ومـن أنـه يعطـف عليـه، إلا أنـه في النهايـة لا يسـمح لـه بالاندمـاج في المجتمـع الإسرائيـلي، ويعيـده إلى قريتـه.

لا يـرى اليهـودي ذاتـه إلا مقابـل الآخـر الفلسـطيني، ويقـول الكاتـب حاييـم بريشـيت حـول الموضـوع: «تُعَـرَّف الـذات الصهيونيـة الآن بـِ «الآخر» الفلسـطيني، مثـل الحـدّ الخارجـي الـذي يحـدد الشـكل»،[٣] فاليهـودي لا يعـرف ذاتـه إلا بمقارنـة نفسـه بالفلسـطيني، والـصراع معـه والانتصـار عليـه. ويضيـف بريشـيت: «وبمـا أن الـصراع العسـكريّ والاقتصـاديّ والثقـافيّ والطبقـيّ ضـدّ الفلسـطينيين يمـلأ الصـورة الإسرائيليـة بـكل ذرّة مـن المعنـى الـذي تتمسـك بـه. كيـف يمكـن التخـلي عنـه! مـاذا سـيحل محلـه؟»[٤]

لـذا في حالـة «العاشـق» العربـي نعيـم، الـذي يبـذل كلّ جهـده للاندمـاج في المجتمـع الإسرائيـلي، فـإن آدم يبعـده إلى قريتـه؛ لأن العلاقـة بينـه وبـين دافي غـير مرغـوب فيهـا، لا مـن آدم، ولا مـن المجتمـع الإسرائيـلي الـذي يمثلـه. العربـيّ الفلسـطيني لا يقبـل كعاشـق، بـل كعامـل أو خـادم، عليـه أن يتلقـى الأوامـر ويطيـع.

فكيـف ظهـر الفلسـطيني أو العربـي - كمـا يحـب الأدبـاء مخاطبـة الفلسـطينيين - في روايـة «سـمير ويوناتـان عـلى كوكـب المرّيـخ» لدانييـلا كارمـي؟ وهـل اختلفـت الصـورة النمطيـة للعربـي عمّـا سـبقها مـن روايـات؟

تحكـي الروايـة تجربـة الفتـى الفلسـطيني سـمير في تعاملـه مـع أشـخاص مـن اليهـود.

إذ يبلـغ مـن العمـر اثنتـي عـشرة سـنة، يعيـش في إحـدى قـرى الضفـة الغربيـة، يصـاب وتتهشـم عظمـة ركبتـه، نتيجـة سـقوطه عـن دراجتـه ثلاثيـة الإطـارات، لأنـه أراد أن يغامـر ويقودهـا إلى المخبـز بطريـق مختـصر عـبر درج السـوق. يسـتطيع الوالـد الحصـول عـلى تغطيـة علاجيـة لـه في مستشـفى يهـودي.

في صبـاح اليـوم الـذي سـيذهب بـه إلى المستشـفى، كان يصـلي كـي تحصـل بعـض المشـاكل فيُفـرض منـع تجـوال حتـى لا يذهـب مـع والدتـه، فوالـده لـم يسـتطع الحصول عـلى تصريـح لمرافقته إلى المستشـفى. وقبيـل صعـوده وأمـه إلى البـاص، تفقـد الوالـد تصريح الدخـول الخـاص بالوالـدة، وعـن صعوبـة الحصـول عـلى تصريـح حتـى للعـلاج يقـول سـمير: «ذلـك التصريـح الـذي حصّلتـه لنـا المحاميّـة التـي تعمـل والدتـي عندهـا في التنظيـف، وهـو تصريـح خـاصّ لإجـراء عمليّـة جراحيّـة في مستشـفى تابـع لليهـود. حتـى لـو نامـت والدتـي ثـلاث ليـالٍ عـلى درج مكتـب الحاكـم العسـكري لـم تكـن لتحصـل عـلى مثـل هـذا التصريـح».[٥]

يتأثـر سـمير في المدرسـة بجملـة إنجليزيـة مـن بدايـة قصّـة «عـلاء الديـن» تقـول: في قديـم الزمـان، كان سـاحر يعيـش في أفريقيـا، سـافر إلى الصـين كـي يحـضر مصباحـا. "ONCE THERE WAS A WIZARD. HE LIVED IN AFRICA. HE WENT TO CHINA TO GET A LAMP" (ص ٢٥)

لـم يكمـل المعلـم القصـة، لأنـه اعتقـل ولـم يعـد. وسـيظهر يوناتـان كمعلـم جديـد لسـمير.

يبقـى يـردد الجملـة كتعويـذة تحميـه، ويحلـم بالمصبـاح. فهـل سـيحصل عليـه؟

انبهار سمير من معاملة الأطباء والممرضين

تظهر المرضة فاردينا كملاك تفوح منها رائحة العطر، وتتصف باللطافة والرقة، وتتقرب من الفتيان بالنكت والمزاح، وتعتني بهم كأنهم أولادها. وعندما أرادت مساعدة سمير بالاستحمام خجل ورفض خلع بنطاله، فاستدعت الملاك الساحر فليكس الذي فتح الباب ودخل فبدا وجهه كعنزة تضحك. لم يبدُ على الإطلاق جنديًا، وكان أنفه أحمر كأنف أحد المهرّجين. بعد الاستحمام نشفه بحركات عناق وضحك. قال لنفسه: «ماذا يقول أصدقاؤك لو أنّهم رأوك الآن...ماذا يقول والدك لو أنّه رأى كيف يعتنون بك وكأنهم والدتك...». (ص ٢٣) كما ساعده في التبول وهو على سريره، ولم يشعر بالخجل لأنّه أخرج من أذنه بالونًا أحمر، نفخه وعلّقه على السرير. وساعده على استعادة قوة رجله من خلال جلسات التقويم، بإصراره على ممارسة التمارين وزرع الأمل في نفس سمير، بعد أن فقد الأمل في المشي من جديد. ولكن، لا تجد الكاتبة بدًّا من التنغيص على سمير، فعند حدوث أي مشكلة لا شك أن العربي هو السبب، أو على الأقل تحوم حوله الشكوك.

يلعب تساحي بالكرة داخل الغرفة فيكسر أصيص الزهور العزيز على قلب فاردينا كونه هدية من أمّ ولد عانى من مرض خطير. توجه كلامها لسمير «نسمح لكم بأن تفعلوا ما ترغبون. ندلّلكم. نرعاكم. وهذا هو جزاؤنا؟!» وفي النهاية، كانت تنظر إليّ أنا بالذات. وكانت نظرتها أكثر قسوة من الضرب». (ص ٦٠)

شعر سمير بالكراهية اتجاه تساحي، وأراد أن يشير إليه بأنه الفاعل، كي يعاقبوه، ويقتلعوه كالأعشاب الضارة من الغرفة، ولكن تدخل يوناتان وقال إنهم جميعا من فعل ذلك، اندهشت فاردينا، أخذت النبتة ونظفتها من كتلة التراب، وقالت النبتة سليمة سوف أنقلها لأصيص آخر. يحس سمير بالخوف من الكراهية التي تنمو بداخله اتجاه تساحي، يشعر بالاختناق، وكي تهدأ نفسه، يردد جملته السحرية باللغة الإنكليزية.

تثير معاملة الأطباء والممرضين إعجاب سمير، كما تدهشه العلاقة القائمة بين أفراد العائلة اليهودية الواحدة. هنا في مستشفى اليهود ثمة هدوء وسكون لدرجة إنّك تسمع صوت الذباب وهو يطير. «لعلّ الأمر كذلك لدى اليهود، ربّما في بيوتهم تعيش العائلات حياة هادئة كما في مسلسلات التلفزيون. يجلسون ويجبلون الصلصال ويأكلون الخبز الهلاليّ مع اللبن الدسم وفتات الشوكولاتة». (ص ٨٠-٨١) هنا لا تجد أناسًا محبطين كوالده، بل «أناس يبتسمون كلّ الوقت». (ص ٨٨)

نظرة الفلسطيني إلى ذاته

لم يكن انبهار سمير من العلاقات الدافئة والحميمية لدى العائلة اليهودية من فراغ، فهو يعيش في عائلة محطمة، سحقتها الظروف. وعلى الرغم من تناول الكاتبة لدور الاحتلال في تدمير العائلة الفلسطينية إلا أنها أتت على الموضوع بخجل بل حاولت نفي الأمر وكأنه مجرد تهمة.

يعيش سمير في بيت يحوي جدّه المسن والضرير، والذي يعيش في عتمة دائمة، وعلى ذكريات بيته القديم ومدينته المحبوبة، لذا هو يدخن بشراهة، يجلس على المصطبة ويبدأ في نتف لحيته، يشعل سيجارة وراء أخرى طوال الليل. سينكمش من الدخان كما تقول والدة سمير. ويخبرنا سمير عن حالته: فهو لم يبق له أصدقاء «بعضهم مات، وبعضهم أصبح متديّنًا جدًا. ومن بين أولئك الذين بقوا – لم يكن هناك من لم يغضب عليه جدّي خلال جدال، أو من صرخ عليه بأنّه حمار برخصة». (ص ٥٦) يحب سماع الأخبار، في إحدى المرات أخذ سمير يشرح له الصور المرافقة للأخبار، كانت عن المعارك في يوغسلافيا، وصف له حال الناس وهم يهربون بالقطارات من المدن المدمّرة، وسط بكاء العجائز، ونوم الأطفال على المقاعد، يسأله عن المحق في هذه الحرب يجيب الجد: «شيء واحد موكّد، كلّ واحد يظنّ أنّه المحقّ». (ص ١٠) وهنا إسقاط على الصراع الفلسطيني- اليهودي، حيث لكل روايته مع ما يرافق الرواية اليهودية من قوة باطشة.

يعيش الجد في الماضي، ويتذكر أيامه الجميلة المسروقة التي لن تعود، وهو يمثل جيل اللاجئين الأول، وتحاول إسرائيل التخلص منهم حتى عن طريق الأدب. عندما يتم تخدير سمير لإجراء

لم يكن انبهار سمير من العلاقات الدافئة والحميمية لدى العائلة اليهودية من فراغ، فهو يعيش في عائلة محطمة، سحقتها الظروف. وعلى الرغم من تناول الكاتبة لدور الاحتلال في تدمير العائلة الفلسطينية إلا أنها أتت على الموضوع بخجل بل حاولت نفي الأمر وكأنه مجرد تهمة.

العمليـة، يحلـم أنـه وجَـدّه يطوفـان في البلـدان جوعـى وعطـشى، ثـم تنقذهـم الأمـيرة الجميلـة اتـي لـم تكـن سـوى لودميـلا الفتـاة المريضـة رفقتـه في غرفـة رقـم سـتة! وتنتهـي رحـلات سـمير بدخـول جـده الصحـراء، وفي مكالمتـه مـع أمـه بعـد العمليـة أراد أن يسـألها عمـا إذا عـاد جـده مـن الصحـراء، ولكنـه لـم يفعـل، فالجـد عـاد مـن حيـث أتـى وكأنـه عابـر سـبيل في هـذه الأرض.

فالكاتـب اليهـودي يتعامـل مـع الوجـود الفلسـطيني عـلى أنـه وجـود عربـي دون خصوصيـة فلسـطينية، حيـث فلسـطين لـم تكـن لشـعب فلسـطيني بالمطلـق، إنمـا تقـع تحـت احتـلال عربـي جـاء مـن الصحـراء، لـذا عليـه أن يرجـع مـن حيـث أتـى، فالفلسـطيني لديـه مـكان يعـود إليـه وهـو أرض العـرب بينمـا اليهـودي لـم يعـرف سـوى هـذه الأرض! وهـي ركيـزة أساسـية قامـت عليهـا الحركـة الصهيونيـة.

الوالـدة تعمـل في التنظيـف (عنـد مكتـب محامـاة يهـودي) وبعـد ذلـك تقـضي الليـل في المخبـز، وتكـون دائمًـا متعبـة، أمـا الأب فيعمـل حلاقًـا ويملـك دكانًـا صغـيرًا، ودائـم التذمـر مـن قلـة الزبائـن بسـبب منـع التجـوال، وهـو قليـل الـكلام، والاتصـال بينـه وبـين أولاده مقطـوع حتـى إنـه توقـف عـن الـكلام نهائيًـا بعـد مقتـل طفلـه فـادي. وفي الروايـة يقـارن سـمير بينـه وبـين والـد يوناتـان، فكيـف تمـت المقارنـة؟

مقارنة سمير بين والده وصديقه العربي مع صديقه الجديد ووالده

رأى سـمير والـد يوناتـان، ووصفـه بأنـه رجـل طويـل، وشـعره ذو خصـلات مموّجـة تتـدلّى حتـى كتفيـه. حتـى إنّـه ظنـه أختـه وليـس والـده. جلـس عـلى السريـر وتحـدّث بهـدوء. وأجـاب عـلى أسـئلة ابنـه حـول الكواكـب. قـال لنفسـه: «انـا بالـذات كنـت سـأسر لـو كان والـدي يعمـل في الكواكـب، وهـذا لـن يحـدث». (ص ٣٤)

وينتقـل بفكـره بـين أفـراد عائلتـه، جـدّه يجلـس طـوال النهـار عـلى المصطبـة ويدخّـن، وشـقيقه بسـام بعـد أن تعـرض للسـجن، سـافر ليعمـل في الكويـت، ولا أحـد يعـرف عنـه شـيئًا. وأختـه نـوار مـا زالـت تحتفـظ بخصلـة شـعر لخطيبهـا الـذي مـات بالرصـاص، ويبـدو إنـه كان مـن المقاومـين، وإن لـم توضـح الروائيـة كيـف مـات! وتبقـى نـوار ترفـض الـزواج، وتعيـش في عالـم خيـالي. أحـب سـمير لـو أنـه مثـل يوناتـان، يكـون لـه أب يأخـذه لـيرى الكواكـب دون أن يسـمع تنهداتـه حـول حسـابات صالـون الحلاقـة.

ويقـارن سـمير بـين صديقـه القديـم عدنـان وصديقه الجديـد يوناتـان. ظهـر عدنـان كفتـى لا مبـالٍ، ودائمًا ما ينسـج القصـص مـن وحـي خيالـه (كاذب)، ويـتردد على السـوق لعلـه يحصـل عـلى حبّـة فاكهـة فجـة، ويرافقـه سـمير للتفتيـش في حاويـات الزّبالـة لعلهـم يحصلـون عـلى شيء ينتفعـون منـه، وهنـا يقـارن سـمير بـين الزّبالـة العربيـة والزّبالـة اليهوديـة، فالزّبالـة العربيـة رائحتهـا كريهـة «الزبالـة هـي مجـرّد زبالـة. سـوداء وقـذرة. وأنـت تعـرف أنّـه لـن تحظـى بـشيء جيّـد مـن الزبالـة». (ص٨٦)

كانـت هنـاك أيـام سـوداء وأيـام جيّـدة، «الأيّـام الدائـرة في الأحيـاء المترفـة، كنـت أندهـش ممّـا يرميـه اليهـود. ألعـاب كاملـة. أكـوام مـن الثيـاب المغسـولة والمكويّـة. ذات مـرّة وجـد عدنـان قبّعـة جلـد مـع إضافة فـروة تتـدلّى عـلى الأذنـين. وعـلى القبّعـة أُلصقـت ماركـة الـدكّان. لقـد أحضرهـا شـخص مـا مـن روسـيا، ولـم يلبسـها. لـم يخلـع عدنـان هـذه القبّعـة طـوال الشـتاء». (ص ٨٧)

كان سـمير يعشـق المصابيـح ويتمنـى لـو أنـه

يجد واحدًا، ووجد مصباحًا أحمر لامعًا ولكنه لم يشعل ومع ذلك فرح فرحًا كبيرًا. يتذكر عدنان كان يعتبره صديقه الأفضل، الآن غير واثق بوجود يوناتان «أنا لست متأكّدًا لأنّ يوناتان يعطيني كلّ يوم شريحة اللحم خاصّته أو قطعة الدجاج أو الحبش، أو لا أعرف كيف يسمّونها، ولا يجعل من ذلك قصّة، ولا يسألني مرّات يوميًّا ماذا ينقصني في الحياة منذ أن أصبحت صديقه». (ص ٩٨)

يمتاز حديث يوناتان بالعمق، ويبدو حديث عدنان شعبويًا وعاميًا، ومن أمثلة هذه الأحاديث:

يوناتان: «مشكلتك يا سمير، أنّك تعيش دائمًا في هذا الكون». (ص ١٠١)

عدنان: «مشكلتك يا سمير، أنّك لا تميّز بين بعر الماعز وأعقاب المالبورو». (ص ١٠١)

يوناتان فتى هادئ، دائمًا صامت ومشغول بالقراءة حول الكواكب والنجوم، طيب المعشر. إحدى يديه ممسوكة داخل آلة حديديّة، لا تتيح له أن يحرّكها. والداه منفصلان، والأم استقرت في أميركا، ويبدو أن الأب له شعر طويل كي يكون أمه أيضًا حسب تحليل سمير. يطلب يوناتان من سمير مرافقته في رحلة طويلة إلى المريخ، كي يصنعا عالمًا جديدًا يسوده السلام.

يشعر سمير بالحرية وهو يلعب، لم يحس بهذا الشعور منذ زمن طويل، يتذكر الروضة والأولاد الكثيرون المتراصون في كوخ خشبيّ، والصخب الكبير، كان دائمًا هناك دفع وصراخ. الصبيان لم يجلسوا أبدًا بالقرب من الطاولة ليرسموا ويعملوا، كانوا يحبذون الخروج إلى الساحة للجري واللعب بألعاب فيها شغب. منذ الطفولة يميل العربي إلى العنف والعراك، وكأن ذلك في جيناته!

جاء يوناتان إلى سرير سمير ذات ليلة، وساعده في النزول إلى الكرسيّ، كان الوقت متأخرًا، وطفق يوناتان يفتش عن غرفة معتمة من غرف المكاتب، حتى وجدها...

«وأخيرًا أخرج من جيبه مصباحًا صغيرًا موصولًا برزمة مفاتيح. نثر المصباح ضوءًا مائلًا إلى الحمرة، ومنذ اللحظة الأولى لم أستطع إلّا أن أطمع فيه. لم أر في حياتي مصباحًا عجيبًا كهذا المصباح، لعلّه ذلك المصباح الذي طالما فتّشت عنه في القمامة؟!». ص ١٣٩- ١٤٠) يبدو سمير قد وجد حلم حياته في مصباح يوناتان.

دخلا الغرفة وأشعل يوناتان الحاسوب، وأدخل القرص الصلب، وبدأ الحاسوب بتلحين نغم ساحر، وتلوّنت الشاشة باللون الأزرق السماويّ، وكانت السماء مدهشة، وكانت الكواكب لامعة تضيء وتنطفئ، والمركبات الفضائية تطير...

يقود سمير المركبة وفق تعليمات وأوامر يوناتان. كون يده اليسرى مصابة.

ومع تحذيرات يوناتان لسمير خوفًا من اصطدام المركبة، يقول سمير: شعرت بالإهانة، فهو تعلم عن الكواكب وهو ما زال صغيرًا.

يقول يوناتان: الهبوط خطير، استخدم كلتا يديك، غضب سمير قائلًا: ومن أين لي أن أعرف «والدي لا يعمل بالكواكب. أستطيع أن أحكي لك كيفيّة شحذ موسى الحلاقة، وثمن شفرات الحلاقة في كلّ بلد في الضّفّة». (ص ١٤٨)

وعلى ضفاف البحيرة يدرك أنّ كلّ شيء ممكن. ويشعر بالقرب من يوناتان، لم يحس بهذا الشعور أبدًا حتى مع فادي أخيه. أخيرًا وجد مصباحه السحري، الذي لم يكن سوى صديقه الجديد يوناتان. «على ضفاف البحيرة الزرقاء التي أقمناها، وقفت مع يوناتان، صديقي من مستشفى اليهود، نرمّم عالمًا جديدًا، دون كوارث. لم يبدُ لنا أيّ شيء مستحيلًا، ونحن معا». (ص ١٥٨)

اعتراف خجول..
حرية تحت السيطرة!

مثل الفتى تساحي دور القائد الذي يتبعه الآخرون، وامتاز بقوة الشخصية، وفرض شروطه على الآخرين، ويملك كفّتَي يدين ضخمتين تمنحانه الثقة بالنفس. فكيف كانت علاقته بسمير؟

اتصفت العلاقة بينهما بالتجاهل، وتعامل تساحي في البداية وكأن سمير غير موجود، يلبي تساحي حب استطلاع الأولاد برؤية ولمس كيس البول الخاص به إلا سمير، حتى عندما طلب يوناتان من تساحي أن يلمسه سمير تجاهل الطلب. قائلًا ليوناتان: «لا يهمّني!». (ص ٤١)

يكبر سمير بسنتين، كثير الغلبة والحركة، عندما يسمع اسم سمير يعود ويكرره باستهزاء. وكان عندما ينظر إليه الفتيان، «يقوم بعمل

أرادت الكاتبة تصوير المجتمع الإسرائيلي بصورة وردية، فهو يحوي قوة العلم ممثلة بيوناتان، والقوة البدنية والعسكرية ممثلة بتساحي، وقوة الجمال ممثلة بلودميلا. يستحضرني هنا زيوس كبير الآلهة الذي كلما أراد إغواء امرأة جاءها على شكل ثور أو وردة أو قطرات مطر، ولكن الروائية أرادت إغواء سمير بكل ذلك.

«زندقة»، فكان إمّا أن يذهب ويبصق في أصيص فاردينا، أو يلبس روب لودميلا الورديّ ويضع يديه في جيوبه، ويتمشّى في الغرفة مشية ابن أكابر كما يقول جدّي». (ص٢٦- ٢٧)

لا يهمه سوى متعته، يلعب بكرة قدم بين الأسرة فيصيب ركبة سمير فيتلوى من الألم.

في إحدى الليالي يفاجئ سمير بالحديث معه، ويخبره أن أخاه جندي، وقادم لزيارته، وكأنه يهدده. شعر سمير بالخوف من صوته، ومن الظلام، ومن كونه تواجد معه وحدهما في الغرفة. يأتي المظلي للزيارة «كان يرتدي الزيّ العسكري باستثناء الخوذة على رأسه، وظهر بشعره الأشعث كأنّه ولد لم يتمشّط أكثر ممّا يبدو جنديّا. وضع بندقيته تحت سرير تساحي، في الزاوية، وجلس على الكرسيّ. مدّ رجليه الطويلتين، وتثاءب، بدا وكأنّه سينام في الحال لو أتيح له. لم تكن له أجنحة». (ص ٦٢) أخذ تساحي يلاعب أخاه، وأخرج كل الأغراض من جيبه، وسمح له بفعل ما يريد. أخذ المشط وبلله بالماء وتمشّط لأن شعره كان أشعث وكذا فعل تساحي وظهرا كأنهما متشابهان، «كدت أحسبهما توأمين». (ص ٦٣)

بدا الجندي متعبًا، ويعاني من قلة النوم. يحضر معه قطعة كنافة من محل «شحادة وأبناؤه» وهو من المدينة القريبة لقرية سمير.

ونرى أن سمير، وعلى الرغم من أنه تخيل أن هذا الجندي هو من أطلق النار على أخيه الصغير فادي فأرداه، فإنه يشعر بتعاطف محسوس معه، فهو تعب، مجهد من العمل، ولكنه يجد الوقت للاعتناء بأخيه، بل هو شخص عادي جدًا يشترى الحلويات من محل عربي.

يراه إنسانًا يتألم، طفق يعزف لحنًا حزينًا، «كانت يداه ترتجفان وهو يعزف. لم أعرف إذا كان سبب ذلك هو التعب أو الجهد الذي بذله كي يعزف. لم أرَ على الإطلاق أحد هؤلاء الجنود عن قرب دون خوذة...». (ص ٦٣)

وكذلك يرى أخت تساحي جميلة وكريمة، توزع أكياس الفستق والحلويات على الفتيان، وتلفت نظره مناكيرها الحمراء.

يشفى الفتيان كلهم، ويقود تساحي الذي تخلص من كيس البول سمير في ممرات المستشفى، ويمارس متعته في التبول في أصيص أزهار المستشفى، ويشير لسمير أن يتبعه، ولا يجد بدًّا من السير خلفه، ولكنه كان خائفًا أن يشارك تساحي، فيخرج تساحي إلى ساحة المستشفى ويتبعه سمير ويتبولان معًا تحت مرأى الفتيان الذين يطلّون من نوافذ الغرف. يضحك الجميع، ولأول مرة لم يشعر سمير بالخوف من تساحي، يسير خلفه يجرجر رجله المصابة.

يقول سمير بعد أن تطبّع وغيّر جلده: «بدأت أفكّر بالبيت، وكيف سأتذكّر هذه اللحظة ولا أصدّق أنّها كانت، لكنّني أريد أن أصدّق،...، أنا سمير، ولد من الضّفّة المحتلّة، وقفت هناك مع ولد يهوديّ أخوه جنديّ، وتبوّلنا كلانا داخل صندوق رمل وضحكنا، واستهترنا بالعالم كلّه. نعم. سأضطرّ بأن أبحث كلّ يوم عن دلالة جديدة تذكّرني بأنّ ذلك كلّه حدث فعل، ولم يكن حلمًا». (ص ١٦٧)

سيتبع الفتى الفلسطيني، الفتى اليهودي وجندي الغد مزهوًا بالعلاقة الجديدة التي تسمح له بحرية محروسة بالبندقية اليهودية.

شراهة سمير وجمال لودميلا عدنان: «قد تنبت وردة على مزبلة»

أرادت الكاتبة تصوير المجتمع الإسرائيلي بصورة وردية، فهو يحوي قوة العلم ممثلة بيوناتان، والقوة البدنية والعسكرية ممثلة بتساحي، وقوة الجمال ممثلة بلودميلا. يستحضرني هنا زيوس كبير الآلهة الذي كلما أراد إغواء امرأة جاءها على شكل ثور أو وردة أو قطرات مطر، ولكن الروائية أرادت إغواء سمير بكل ذلك.

فكما سار سمير خلف يوناتان وتساحي لا يلوي على شيء، ها هي لودميلا الجميلة تقوده إلى عالم وردي. شعرها متموّج فاتح اللون، ذات شعر ذهبيّ، وتبدو كدمية من جمالها.

سمير في الأيام الأولى كان همّه الوحيد الحصول على الطعام، وتكرر الكاتبة جشع وطمع سمير بتناول المزيد من الطعام في مواقف كثيرة، منها: لودميلا حزينة، وترفض الأكل، يفكر سمير: «لعلّني أنجح في الوصول إلى صينيّة لودميلا حين تخرج المرضة». (ص ١٧)

وأيضًا: «وكنت أنظر إلى لودميلا التي كانت تداعب أرنبها وفكّرت في عدم تناولها الطعام وأنّها تبدو كأميرة، ابنة خليفة بغداد، وأنّ الخليفة يعد أن يقدّم صينيّة طعامها لمن يشفيها من مرضها». (ص ٢٨)

والدا لودميلا نحيفان بشوشان، دخلا الغرفة يحملان كعكة عليها شموع مضاءة. ينشدان أغنية بالروسية. ويعبر عن لذته في تناول قطعها منها: «لم أر كهذه الكعكة على الإطلاق. لا أقصد فقط الطلاء الذي كان بطعم الشوكولاتة وفوقه ثلج وحبّات الحلوى التي كانت فوق الثلج، فقد كانت الكعكة مكوّنة من طبقات، ولكلّ طبقة لون مختلف. وكان الثلج الأبيض ينزلق مباشرة إلى حلقك قبل أن تستوعب. وتذوب الحلوى في الفم. كعكة تقضم منها ولا تجد ضرورة لاستعمال الأسنان». (ص ٨٥)

بناء العلاقة العربية – الإسرائيلية بمساعدة النرويج وأميركا

تظهر في الرواية شخصيتان نرويجيتان بشوشتان محبوبتان، هما: إنجريد الأولى و إنجريد الثانية، تأتيان إلى الغرفة عدة مرات للترفيه عن الفتيان المرضى، في إحدى المرات تحضران صلصالًا أحمر من أجل اللعب. صنع يوناتان مذنبًا ثم غير رأيه وصنع نجمة بحر صغيرة، وتساحي صنع مدفعًا عملاقًا، ولونه بألوان مرقّطة ليموه على الأعداء، ورازيا صنعت أصيصًا بدل المكسور لفاردينا، أما سمير فصنع ما يشبه الأرنب في محاولة لاستعادة ذكرى أخيه فادي وأرنبه. تحب لودميلا الأرانب، وعلى النافذة من فوقها صفّ من الدمى. أعجبت بأرنب سمير فأهداها إياه. تأخذ لودميلا الأرنب وتضعه على خزانتها، سمير يمني النفس، يقول: «لعلّني في نهاية الأمر لا أصل على الرغم من ذلك إلى بئر الأفاعي الخاصّ بالشيطان». ص ٨٨

فهو لا يسمح لنفسه بالتفكير السيء اتجاه الإسرائيليين وإلا سيذهب إلى بئر الأفاعي المخيف.

في النهاية، تصنع كعكة السلام الإسرائيلي المنشود بمساعدة فتيات النرويج الجميلات، بعد أن يقوم الطبيب الأميركي بإجراء جراحة للعربي المريض بالطمع «هنا في مستشفى اليهود أتناول اللحم يوميًّا وأصعب شيء لديّ هو التنازل، كما أعتقد، عن شرائح اللحم الموجودة في العلب التي يوزّعونها هنا أيّام السبت». (ص ٩٩)

والقذارة «كانت الإسفنجة طريّة، ليست كالليفة. لم أكن متأكّدًا بأنّ إسفنجة كهذه تزيل عنك الأوساخ كلّيًا». (ص ٢٢)

والخداع «تخيّلت نفسي أعرج في السوق على العكّازين، وأنزل الدرجات العريضة، وأمرّ بجانب مجموعة سيّاح. ينظرون إليّ واجمين، ويعتقدون أنّ ذلك بفعل رصاصة أصابت رجلي. ولم لا يفكّرون؟ وأنا أصمت. وينظرون إليّ وأنا أصمت صمتًا عميقًا، وأحاول السكوت كما يسكت الأبطال الحقيقيون...». (ص ٢٢)

والذاكرة الخبيثة للجد والأب وحتى سمير الذي تسأله ممرضة من أين أنت؟ يجيب: من يافا.

وبالعودة لرواية «العاشق» نجد عدنان شقيق

نعيم، رفض الوضع القائم، وثار، وبات ينتمي إلى صفوف المقاتلين الفلسطينيين، رفضًا لما هو عام، وما هو شخصيّ، بعد أن رفض من قبل الجامعات الإسرائيلية في التخصص الذي يرغب فيه. وفي نهاية الأمر، يتعرَّض عدنان للقتل، بينما يتعرّض نعيم للطرد. «وهذا يعني أن المشكلة التي وصفها يهوشواع ـ مشكلة العربي التي هي أيضًا مشكلة اليهودي ـ بقيت معلقة ودون حل»، والشقيقان نعيم وعدنان استحضرا في الرواية، ليعبر يهوشواع عن رأيه في أنه على المجتمع الإسرائيلي أن يغير من تصرفاته ولا يعامل العرب كأنهم نموذج واحد، ويجب التفريق حتى بين أخوين. من هذا المنطلق يقتل يهوشواع الشقيق الفدائيّ، لأنه لجأ إلى السلاح والكفاح لاسترجاع حقوقه، أما نعيم فيبعده إلى قريته بعد طرده من العمل. ويقول الباحث عمر عبد الغني، إن ذلك نابع من أنّ محاولة نعيم الاندماج «تجاوزت الحدود المسموح بها للعربيّ الذي لا يزال يعتبر «سرًا» أو «مشكلة غامضة» تبحث عن حلّ لها في متاهة المجتمع الإسرائيلي».[٦] وهذا ما فعلته الكاتبة، فبسام تعرض للسجن، ثم اضطر للسفر بحثًا عن العمل أو عن الحرية المفقودة لأنه يرفض الوضع القائم (يختفي عن وجه الأرض اليهودية في النهاية)، أما سمير فمصيره يختلف عن نعيم، فبينما تزود نعيم بخيرات اليهود وتم ارجاعه إلى قريته لأنه لم يحن الوقت لإدماجه، نرى أن سمير يمكن تزويده بخيرات اليهود وإدماجه ولكن كتابع، وتحت بصر البندقية.

الهوامش

١ عمر عبد الغني. **الفكر الصهيوني بين التصوّر النمطي والتصوّر الفردي في الأدب العبري الحديث**. (غزة: اتحاد الكتاب الفلسطينيين ـ القدس، ١٩٩٦)، ص ٢٠.

٢ أ.ب.يهوشواع، **العاشق**، ترجمة محمد حمزة غنايم، (شفا عمرو: منشورات جامعة تل ابيب ودار المشرق، ١٩٨٤).

٣ حسن خضر، "سؤال الهوية في الأدب الإسرائيلي". **علامات** سلسلة غير دورية تصدر عن وزارة الثقافة ودار فنون للطباعة والنشر، دون تاريخ، ص ١٨٩.

٤ خضر، ص ١٨٩.

٥ دانييلا كارمي. **سمير ويوناتان على كوكب المرّيخ**، ترجمة لبنى صفدي- عبّاسي (حيفا: منشورات مكتبة كل شيء، ٢٠١٦)، ص ١.

٦ عبد الغني، ص ٨٨.

٧ دانييلا كارمي. **سمير ويوناتان على كوكب المرّيخ**، ترجمة لبنى صفدي- عبّاسي (حيفا: منشورات مكتبة كل شيء، ٢٠١٦)، ص ١.